بصائر ذوى التمييز

تأليف مجد الدين الفيروزبادى
تحقيق محمد على النجار
نقد عبد الستار أحمد فراج

مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادى : ولد فى مدينة كازرين سنة ٧٢٩ هجرية ، وتنقل فى طلب العلم بين فارس والهند ، والبلاد العربية فى العراق والشام والحجاز ومصر ، ورحل الى تركيا ثم استقر باليمن فى زبيد ، وبها توفى سنة ٨١٧ .

وهو من أهم العلماء الذين كان لهم فضل لا ينسى على مفردات اللغة العربية ، بسبب تاليفه المعجم اللغوى المشهور بالقاموس المحيط ، ذلك الكتاب الذى لا يخفى على احد ، ولا يستغنى عنه العلماء والادباء والباحثون ، ومؤلفاته التى تزيد على الاربعين تدل على سعة اطلاعه ووفرة محصوله .

ومن الكتب التى الفها « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » ويتعرض هذا الكتاب لفضل القرآن الكريم ، ودرجة اعجازه ومالابد للمفسرين من معرفته ، ومواضع نزول السور ، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها ، ومجموع فواصل الآيات ، ومقصود السورة وما تضمنه وناسخها ومنسوخها .. الخ .

وواضح من الكتاب أن المؤلف اعتمد على سابقيه ، ممن خدموا القرآن والحديث واللغة ، وكان له فضل التحصيل والتجميع ، فاعان المؤلفين بعده ، لما له من شهرة جديرة بالاخذ عنه .

صدر الجزء الاول من « بصائر ذوى التمييز » بتحقيق الاستاذ محمد على النجار ، وطباعة الكتاب من ارقى الانواع حروفا وورقا واخراجا ، وذلك ما يجب ان تظهر فيه كتب التراث العربى .

وقد بذل فى التحقيق جهد مشكور ، وكان الامل فى محققه ان يبذل جهداً اكثر مما فعل ،

واول ظاهرة واهمها ان المحقق اقتصر فى نصوص الاحاديث النبوية على بعض مراجع ظنها جامعة وافية كالترغيب والترهيب والجامع الصغير واخذ منها دون الرجوع الى كتب الحديث نفسها المنسوب اليها النص ، كالبخارى ومسلم وابى داود والنسائى والترمذى وابن ماجه والدارمى ومسند احمد ، ولئن جاز أن يحدث ذلك من بعض المحققين ، فلا يجوز من مثل الاستاذ محمد على النجار . ولو كانت كتب الحديث الاصول غير مطبوعة ، او كانت فى بلاد غير البلاد ، لكان له فى ذلك عذر مقبول ، وكذلك يكون له العذر اذا لم يكن هناك ما يعين على الوصول الى بعضها كالمعجم المفهرس لالفاظ الحديث ، الذى وصلت الفهارس فيه الى حرف الغين على الاقل ، ويندر ان يكون الحديث خاليا من الحروف من الالف الى الغين . وكتاب مفتاح كنوز السنة الذى يحصر اغلب الموضوعات العامة ، ومنها القرآن وفضائله ، والعلم وطلبه ، اللذان كانا من ابواب بصائر ذوى التمييز .

فمثلا فى صفحة ٤٣ « اذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله الا من ثلاث .. »

علق عليه بقوله : « روى هذا الحديث فى الجامع الصغير ، ورمز له بالرمز (خدم) اى رواه البخارى فى الادب المفرد ومسلم فى صحيحه » .

ولو رجع الى الفهارس لوصل الى أماكن الحديث ، ولعرف ان الجامع الصغير لم يوف الموضوع حقه . فالحديث ايضا فى ابى داود وصايا ١٤ (ج ٢ ص ٤١) وفى ابن ماجه مقدمة ٢٠ (ج ٨٨/١) وفى النسائى وصايا ٨ (ج ٢٥١/٦) وفى الدارمى مقدمة ٤٦ (ج ١٣٥/١) وفى الترمذى احكام ٣٦ (ج ١٤٤/٦) وفى الطبعة الحديثة منه موجود تحت ابواب الوقف .

ومثلا فى صفحة ١٢٣ « لو كان لابن آدم واديان .. »

علق عليه بقوله : « جاء هذا حديثا فى مسلم فى كتاب الزكاة ، ونصه : قال رسول الله .. »

ان صحيح مسلم بشرح النووى مثلا يبلغ ١٨ جزءا . ففى اى جزء منه ؟ وفى اى صفحة ؟ او ما هو رقم الحديث فى كتاب الزكاة ؟ انى لاذكر له أن الجزء السابع من صحيح مسلم يبدأ فيه كتاب الزكاة من صفحة ٤٨ الى صفحة ١٨٦ والنص الذى ذكره فى الهامش هو احد نصوص مسلم ، والا فللحديث روايات اخر فيه . ومعنى كلامه أن روايته قاصرة على النص الذى اثبته بالهامش ، فلينظر صحيح مسلم ج ٧ من ص ١٣٨ الى ص ١٤٠ فانى واثق أنه لم يطلع عليه والا لقال : ونص احدى رواياته . ولو رجع الى فهارس الاحاديث لوجده ايضا فى البخارى فى الرقاق ١٠ وفى الترمذى فى الزهد ٢٧، وفيه فى المناقب ٣٢ ، ٦٤ وفى الدرامى فى الرقاق ٦٢ وفى ابن ماجه فى الزهد ٣٧ وفى مسند الامام أحمد فى (ج ١ : ٢٧، و جـ ٣ : ٢٢–١٦٨–١٧٦–١٩٢–١٩٨–٢٣٦–٢٣٨–٢٤٧–٢٧٢–٢٤٠–٢٤١ و جـ ٤ : ٣٦٨ و جـ ٥–١١٧ ثلاث مرات و ١٣١ و ١٣٢) .

هذا وفى صفحة ٥١ « من علم علما نافعا وكتمه الجمه الله يوم القيامة بلجام من نار » .

علق عليه بقوله : « جاء فى الجامع الصغير ورمز له بالرمز (عد) اى رواه ابن عدى فى الكامل الذى الفه فى معرفة الضعفاء ومقتضى هذا أنه ضعيف » .

أن النقل هكذا بسذاجة ، واطلاق الحكم هكذا بالضعف ، دون تورع ولا تحرج ، فيه اثم كبير . ولو اجتهد ، والواجب ان يجتهد ، لوجد ان الحديث فى سنن أبى داود جـ ٢ ص ٨٢ ونصه « من سئل عن علم فكتمه الجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » وموجود ايضا فى ابن ماجه جـ ١ ص ٩٦ – ٩٨ بعدة روايات ، واذا كان قد قدح فى بعض اسانيده فان ثلاثة أسانيد لم يقدح فيها ، كما لم يقدح فى سند ابى داود ، واظنه يعلم ان الكتابين من كتب السنة الستة المشهورة . وتعدد الروايات والطرق للحديث وصحة المعنى مما يقويه .

وفى صفحة ٦١ جاء الحديث « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن فى الصفة . فقال : ايكم يحب ان يغدو كل يوم الى بطحان او العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين زهراوين فى غير اثم ولا قطيعة رحم ؟ قلنا : كلنا يا رسول الله يحب ذلك . قال : لان يغدو احدكم كل يوم الى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ومن اعدادهن من الابل » .

علق على هذا الحديث بقوله : « رواه مسلم وأبو داود واللفظ فى الكتاب لابى داود كما فى الترغيب والترهيب » . وكنت احب للمحقق ان يرجع الى هذين الكتابين اللذين أرشده اليهما كتاب الترغيب والترهيب ، ليتأكد هل اللفظ فى الكتاب لابى داود او ليس له . وهو يعلم انه اذا قيل « اللفظ له » فالنص مطابق . وهذه رواية ابى داود للحديث فى جـ ١ ص ١٤٦ « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصفة فقال ايكم يحب ان يغدو الى بطحان او العقيق فيأخذ ناقتين كوماوين زهراوين بغير اثم بالله عز وجل ولا قطع رحم ، قالوا : كلنا يا رسول الله . قال : فلان يغدو احدكم كل يوم الى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ، وان ثلاث بثلاث ، مثل اعدادهن من الابل » . انا نجد اختلافا فى عدة الفاظ ، وحذفا فى الفاظ ، وزيادة فى الفاظ . ثم لو رجع الى صحيح مسلم فى صلاة المسافرين الحديث ٢٥١ لوجد ان فيه كلمة « نحب » التى حرفها أو تحرفت بالهامش ١ ص ٦٢ الى « تحب » التى لاتناسب السياق .

وفى صفحة ٥١ « لا تعلقوا الدر فى اعناق الخنازير » .

علق عليه بقوله : « ورد الحديث فى الجامع الصغير بلفظ « لا تطرحوا الدر فى أفواه الكلاب » .

ومن العجيب أن كتاب كنز العمال من مراجع الاستاذ النجار ، فلو رجع الى الجزء الخامس منه فى صفحة ٢٠٠ لوجد نص الحديث ، ولو رجع الى ابن ماجه جـ ١ ص ٨١ لوجد نص الحديث وهو : « طلب العلم فريضة على كل مسلم وواضع العلم عند غير اهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب » فاين الافواه والكلاب من الخنازير وتقليدها الجوهر ؟

ولو أنه اطلع على النص فى الكتابين لما احتاج أن يعلق فى صفحة ٤٢ بالهامش ٥ على بعض الحديث « طلب العلم فريضة » بقوله : « وفيه اختلاف كثير فى صحته » لانه سيجد ما نقله الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى حول هذا الحديث قال : فى الزوائد : اسناده ضعيف ؛ لضعف حفص بن سليمان . وقال السيوطى : سئل الشيخ محيى الدين النووى رحمه الله تعالى عن هذا الحديث فقال : انه ضعيف ، اى سندا ، وان كان صحيحا ، اى معنى . وقال تلميذه جمال الدين المزى : هذا الحديث روى من طرق تبلغ رتبة الحسن . وهو كما قال . فانى رأيت له خمسين طريقا ، وقد جمعتها فى جزء . انتهى كلام الامام السيوطى » . على ان مقتضى النقل ، ومقتضى الشريعة التى تقدر العقول ، والتى ترى ان ايمان المقلد مشكوك فيه ، كل ذلك يقتضى حسن الحديث وصحة معناه ، فما بالك بخمسين طريقا لهذا الحديث .

لو انى تتبعت ما قاله المحقق وما قصر فيه من ناحية احاديث رسول الله لكان كثيرا جدا ، وما كان الامل فى مثله أن يقف من الاحاديث هذا الموقف الدال على الاستهانة ، وقبول النصوص على علاتها ؛ دون الرجوع الى الاصول . ولو رجع الى الفهارس التى ذكرتها له لخرج أحاديث كثيرة ، وعرف مواطنها مثل الحديث المذكور فى صفحة ٤٦ « كلمة الحكمة ضالة كل حكيم ... » فليرجع اليه فى الترمذى كتاب العلم ١٩ جـ ١٠ ص ١٥٩ وابن ماجة كتاب الزهد ١٥ باب الحكمة . فلابد من التحقيق الدقيق فى النص والتأكد من صحته فى موضعه ، سواء اكنت محققا ام مؤلفا فى دين او لغة .

واعود الى امور اخر من الكتاب :

يقول الأستاذ المحقق فى مقدمة الكتاب ص ٢٨ : « ومن هذا استمد الاسم الجديد « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب

العزيز » وتراه غير « العظيم » بالعزيز ليسجع مع العبارة التي اجتلبها » .

قال المحقق ذلك لأن المؤلف في مقدمته قال : « المقصد الأول في لطائف تفسير القرآن العظيم » ثم عدل عن بقية المقاصد . ثم سمى الكتاب « بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» ان المؤلف لم يغير كلمة العظيم وحدها ، بل غير أيضا كلمة « القرآن » وحذف كلمة « تفسير » والقرآن كما يسمى العظيم ، يسمى العزيز ويسمى المبين ، ويسمى المجيد .. الخ ، انظر ما عقده المؤلف في صفحة ٨٨ في ذكر أسماء القرآن ، فلا محل هنا لأن يقال : غير العظيم بالعزيز ، بل ان المؤلف كان حكيما اذ غير كلمة القرآن أيضا بالكتاب ، ليقتبس من الآية الكريمة « وانه لكتاب عزيز » سورة فصلت الآية ٤١ . هذا والأستاذ النجار قد ضبط كلمة يسجع بتشديد الجيم من التفعيل . والكلمة في اللغة مشددة وغير مشددة ، والشهرة أكثر لغير المشددة ، التي منها السجع ، فتفضيل المحقق للفظ على لفظ لا شك لمعنى بلاغي في نفسه ، ما دامت كلتا الكلمتين صحيحة لغة . فما هو التوجيه البلاغي لاختياره ، ومعلوم ان تشديد الفعل ومصدره التفعيل يكون للتكثير . فأين الكثرة في السجع التي اختار لها يسجع المشددة ، دون يسجع المخففة ، والعنوان ليس فيه سجع الا مرة واحدة .

في مقدمة المحقق صفحة ٢٨ أيضا يقول : « فيذكر في كل سورة مباحث تسعة » وعددها . وما دام يعرف ذلك فمن الذي اختار في صفحة ٥٥ لفظة « سبعة » الموجودة في نسخة (ا) ووضع في الهامش لفظة « تسعة » الموجودة في نسخة (ب) ومن المعلوم ان المحقق حينما يتضارب امامه لفظان في مخطوطين يبحث عن الصواب منهما فيثبته ، ويشير بالهامش الى ما في النسخة الأخرى ، ما لم يكن من الذين لم يحسنوا اللغة العربية تمام الاحسان ، فيضع لفظا من مخطوط في صلب الكتاب ، ويثبت فروق النسخ في الهامش ، دون أن يختار الصواب . ثم ان المؤلف الفيروزبادي في صفحة ١٢٧ جعل العدد ثمانية ، وذكرها تفصيلا ، اذ أنه أدمج عدد الآيات المختلف فيها ضمن الثاني ، فصارت الجملة ثمانية . أما كان يجدر أن يوفق بين ما قاله في المقدمة في صفحة ٢٨ وما جاء في النسخ في صفحة ٥٥ وما جاء في صفحة ١٢٧ ، ولو انه قرن بين قولي المؤلف في الصفحتين لوضع في الهامش ٣ في صفحة ١٢٧ جملة « يريد ثمانية أشياء » اقتباسا من قول المؤلف نفسه في صفحة ٥٥ فهي أولى من كلمة « مباحث » التي اختارها المحقق .

في صفحة ٥٣ يقول المؤلف عن موانع العلم وعوائقه : « ومنها الانتقال من علم الى علم آخر قبل أن يحصل منه قدرا يعتد به أو من كتاب الى كتاب قبل ختمه ، فذلك هدم لما بني (ويعز مثله) » . علق على ذلك بقوله « كذا في أ ، ب والعبارة نابية هنا . وكان أصلها (ونقض له) » اين وجه الشبه في الكتابة بين « نقض » و « يعز » وبين « له » و « مثله » ما لم يقطع من الثانية نصفها الأول . ان المسألة أهون من هذا بكثير ، ولا تكلف فيها ولا نبو . وصحة الجملة « ويغر مثله » فالنقطة توضع على العين لا على الراء . وتكون الواو للحال . والمعنى : ومثل هذا يصاب بالغرور . ومعلوم أن الذي ينتقل من علم الى علم قبل أن يحصل منه قدرا يعتد به ، ومن كتاب الى كتاب قبل ختمه يصاب بالغرور ، لاعتقاده أنه اطلع على علوم عديدة ، وقرأ كتبا كثيرة ، وهو في الحقيقة لم يحصل قدرا يعتد به ، ولم يختم كتابا .

في صفحة ٥٧ يقول المؤلف : « الباب الأول في ذكر المقدمات والمواقف ، وهذا الباب مشتمل على طرفين : الطرف الأول في المقدمات وهي ثمانية فصول . والطرف الثاني في المواقف » فجاء المحقق ووضع زيادات من عنده ، فأفسد كلام المؤلف ، حيث جعله كالآتي : « الباب الأول (وفيه طرفان) (الطرف الأول) في ذكر المقدمات والمواقف .. والطرف الثاني في المواقف » .

ان المؤلف جعل المقدمات طرفا والمواقف طرفا . واضافة المحقق جعلت المقدمات والمواقف طرفا وجعلت الطرف الثاني هو المواقف ، وهذا تضارب واخلال بالسياق ولو ان هذه الزيادة كانت في احدى النسخ لاحتمل أنه ينقل ما امامه ، أما أن يضيف في غير موضع الاضافة فيخل ، فذلك الأمر العجيب . والواقع أن في الكتاب نقصا قبل ذلك بصفحة وهي ٥٥ ، فأراد المحقق أن يعالج الموضوع ، فكان علاجه في غير موضع الداء ، ولكي يستقيم الكتاب في صفحة ٥٥ مع ما في صفحة ٥٧ ومع ما في صفحة ١٢٧ يجب أن يحذف ما زاده المحقق في صفحة ٥٧ وأن يزاد في صفحة ٥٥ قبل السطر الأخير من الأصل ما يأتي :

« وأما المواقف فاذكر تفصيل سور القرآن) وأذكر في كل سورة ... » الخ ، وبهذه الجملة ينتفي التناقض وينسجم ما في الكتاب فلا تتضارب الصفحات ٥٥ ؛ ٥٧ ، ١٢٧ .

ان آية السيف التي عدت من النواسخ مختلف في تعيينها ، فابو جعفر النحاس ، والمظفر ابن خزيمة الفارس ، والسيوطي مثلا ، يرون أنها الآية الخامسة من سورة التوبة والحافظ ابن حجر يرى أنها الآية ٣٦ من سورة التوبة . وبعض العلماء يرى أن كلتا الآيتين تسمى آية السيف . الا أن الفيروزبادي في كتابه بصائر ذوي التمييز الذي حققه الأستاذ النجار نص في صفحة ١٢٥ على أن آية السيف هي السادسة والثلاثون من سورة التوبة ، ويلاحظ أن الحافظ ابن حجر معاصر للفيروزبادي ومتصل به ، وقال ذلك أيضا الأستاذ النجار في تعريفه بالفيروزبادي ، لكنا نجد المحقق بعد عدة صفحات يهمش على لفظتي « آية السيف » فيقول أنها الآية الخامسة من سورة التوبة ، ثم يتركها تمر في عدة صفحات ، ثم يعيد قوله بانها الآية الخامسة من سورة التوبة . أفلم يطلع على نص المؤلف الذي حققه ، أو أن رأيه مخالف لرأي الفيروزبادي وابن حجر ؟ لئن كان لم يطلع عليه فهذا شيء لا يحمد عليه ، وان كان اطلع عليه ولم يوافقه فالأجدر أن يهمش على قول المؤلف ، ويبين لنا الخلاف في ايهما آية السيف ، ولا يترك القراء محتارين بين رأيه ورأي صاحب الكتاب الذي قام بتحقيقه . اني لأتساءل : من يا ترى راجع صفحة ١٢٥ من كتاب بصائر ذوي التمييز !

درج المؤلف على أن يذكر في كل سورة ناسخها ومنسوخها أو ينص على أنها محكمة . وجاءت سورة الأعراف فسقط من

الكتاب الاشارة الى ذلك ، وكان الأمل أن يثبت لنا المحقق ماقيل في ناسخها ومنسوخها ، وبخاصة أن المؤلف في صفحة ١٢٦ قال : « والتي فيها المنسوخ وليس فيها ناسخ أربعون سورة : الأنعام ، والأعراف .. » في حين أن المحقق في صفحة ٣٤١ علق على سورة الفرقان بقوله : « أن المؤلف لم يذكر هنا الناسخ والمنسوخ ، وقد ذكر ابن حزم .. » وفي سورة قد سمع ص ٤٥٦ علق المحقق في الهامش « لم يذكر الناسخ والمنسوخ ، وهنا موضع ذكره ، وفي كتاب النحاس .. » . فأين ابن حزم وأين كتاب النحاس في سورة الأعراف ؟ وأين ما قالته كتب التفسير في ذلك ؟ ولينظر أيضا صفحة ٥١٤ عن سورة الأعلى وماقاله المؤلف في صفحة ١٢٦ . افلم يطلع المحقق على تلك الصفحات ؟ ولينظر ايضا صفحة ٤٤٩ سورة الطلاق وما قاله المؤلف عنها في صفحة ١٢٦ .

في صفحة ١٤٩ (قوله « ومن حيث خرجت فول ») هذه الآية مكررة ثلاث مرات ، قيل أن الأولى لنسخ القبلة والثانية للسبب ، والثالثة للعلة » . همش المحقق بقوله : « عرفت أن الوارد بهذا اللفظ آيتان فقط ، وكأنه يريد بالثالثة قوله تعالى : (فول وجهك شطر المسجد الحرام) الآية ١٤٤ » .

الذي لا شك فيه أن في الأصل اضافة من الناسخ . والمحقق يعترف في بعض هوامشه أن الناسخ قد أقحم وزاد . انظر مثلا صفحة ٤١٢ هامش ٣ . فمراد المؤلف هو لفظة « فول » وماجاء بعدها ، وقد يكون في اصل المؤلف « فول » فزاد الناسخ قبلها « ومن حيث خرجت » . اما الذي يتفق مع كلام المؤلف وانه تكرر ثلاث مرات في السورة فهو (فول وجهك شطر المسجد الحرام) الآيات ١٤٤ و ١٤٩ و١٥٠ ،وان الاولى ولاشك هي ١٤٤ وليست الثالثة كما قال المحقق ، وترتيب المؤلف لنسخ القبلة هي الخاصة به ، كما ان الثانية خاصة بالسبب والثالثة خاصة بالعلة . وما جاء بعد ذلك مرتب على هذا كله .
بعد ذلك مرتب على هذا كله .

البيت الذي لم ينسب في صفحة ٨٦ « اذا طلعت شمس النهار ... » هو لقيس بن ذريح أو مجنون ليلى ، انظر الأغاني ترجمة قيس بن ذريح وديوان مجنون ليلى .

يلاحظ أن الأرقام للتهميش عليها وبخاصة الآيات القرآنية موضوعة بطريقة مضطربة فتارة قبل الآية ، وتارة بعد كلمة من الآية ، وتارة بعد كلمتين أو كلمات ، وتارة في آخر الآية . ومن الواجب في القرآن خاصة أن توضع الأرقام اما قبل كلماته واما في آخرها . والواجب على كل حال أن يكون التهميش منسقا على نظام واحد لا مضطربا كما يتفق .

●

لقد كان الأمل في عالم جليل أن يعنى بالأحاديث النبوية عناية خاصة ، أما تخريج الآيات القرآنية وما أكثر ورودها في الكتاب المحقق ، فانه من أيسر الأمور ، كما أن العالم المحقق الموثوق به يجدر به أن يعنى بموضوعه عناية تامة ، ولا يرسل القول ارسالا . فالتثبت والتحقق أول شروط التحقيق ، وايضا أول قواعد التاليف .

محمد البشير الابراهيمي
في ذمة الله

في يوم الخميس ١٩ من المحرم ١٣٨٥ ، الموافق ٢٠ من مايو سنة ١٩٦٥ ؛ فقدت الامة العربية صرحا من صروحها الشامخة في العلم والسياسة والاخلاق ، ذلك هو الشيخ محمد البشير الابراهيمي المجاهد الجزائري المعروف .

كان مولده عند مطلع شمس يوم الخميس ايضا ، في الثالث عشر من شوال سنة ست وثلاثمائة والف هجرية ، وهو يوافق الرابع عشر من يونية سنة ١٨٨٩ ميلادية . وهو سليل قبيلة أولاد ابراهيم بن يحيى بن مساهل ، التي يرتفع نسبها الى ادريس ابن عبد الله ، الجذم الاول للاشراف الادارسة ، ويدعى ادريس الاكبر ، وهو الذي خلص الى المغرب الاقصى بعد وقعة « فخ » بين العلويين والعباسيين ، وترجع اليه انساب الاشراف الحسنيين في المغربين الاقصى والاوسط .

بدأ البشير الابراهيمي تعليمه وهو في الثالثة من عمره ، في منزل والده ، على أيدي جماعة من اقاربه يحفظون القرآن ، وباشراف عمه الاصغر الشيخ محمد المكي الابراهيمي الذي كان على حظ كبير في علوم اللغة والنحو والصرف والاشتقاق . وقد اشتغل عمه هذا بتربيته وتعليمه عندما بلغ السابعة من عمره، ففرض عليه برنامجا صارما ، كان يأمره بالنوم ؛ ويوقظه بنفسه ، ويصحبه في غدواته وروحاته ، ليلقنه متون العلم ويحفظه القرآن الكريم . فلم يكد الفقيد يبلغ سنته التاسعة

حتى ختم كتاب الله ، مع فهم لمرداته وغريبه ، هذا بالاضافة الى الفية ابن مالك ،ومعظم كافيته والفية ابن معطى الجزائرى والفيتى الحافظ العراقى فى السير والاثر ، وغير ذلك من شعر ونثر • ولم يزل يتدرج به عمه من السهل الى الصعب من الكتب تلقينا وحفظا ومدارسة للمتون ، حتى بلغ الحادية عشرة ؛ فبدأ يدرس له الفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق •• ولقد كان البشير الابراهيمى ذكيا ذا حافظة مستوعبة وقريحة نيرة ، مما جعل عمه يجيزه على تدريس بعض العلوم •

فلما مات الاستاذ بدأ التلميذ يدرس لطلبته ، بل لزملائه فى الدراسة ، وهو لم يتجاوز الرابعةعشرة من عمره ، فانثال عليه طلبة العلم من البلدان القريبة ، فكان يعلمهم هو ، ويكفلهم ابوه كما كان يفعل ايام ان كان العم هو الذى يقوم بالتدرس •

ولم يكن البشير الابراهيمى يقتصر على التدريس فى منزل والده ، بل كانت له بعض جولات فى مدارس قريبة • وظل على هذه الحال حتى هاجر الى المدينة المنورة وهو فى العشرين من عمره ، لاحقا بابيه الذى سبقه اليها باربع سنوات فرارا من ظلم الحكام الفرنسيين •

وبهجرة البشير الى المدينة تبدأ مرحلة جديدة من حياته • ولقد كان من الطبيعى ان يمر فى طريقه بالقاهرة ، فاقام فيها ثلاثة اشهر قضاها فى الدرس والتحصيل ومجالسة العلماء والادباء والشعراء ، امثال الشيخ سليم البشرى والشيخ محمد بخيت والشيخ يوسف الدجوى واميرالشعراء احمد شوقى وشاعر النيل حافظ ابراهيم •

وفى المدينة لازم شيخين جليلين هما الشيخ الوزير التونسى والشيخ حسين احمد الفيض ابادى الهندى ، فدرس على الاول كتاب الموطأ للامام مالك ودرس على الثانى صحيح مسلم • وهو وان كثرت مصاحبته لهذين العالمين ، فانه لم يقتصر على الاستفادة منهما وحدهما ، بل حضر بعض دروس غيرهما من علماء المدينة فى الفقه والحديث والتفسير والانساب والشعر واللغة والمنطق • والى جانب استفادته من علماء المدينة كان يفيد طلاب العلم فيها بالعلوم التى لا يحتاج فيها الى مزيد ، كالنحو والصرف والعقائد والادب ، وفى مكتبات المدينة كان المنهل العذب الذى ينهل منه البشير الابراهيمى فى اوقات فراغه ، فاطلع على كثير من مخطوطاتها النادرة وحفظ منها الكثير •

وتهب على الارض الآمنة عواصف ثورة الشريف حسين بن على ، وتعجز السلطات عن تموين خمسين الفا من جنود الجيش ، فتامر الحكومة العثمانية سنة ١٩١٧ بترحيل سكان المدينة كلهم الى دمشق ، مصدر الاقوات ، فيذهب البشير الابراهيمى ووالده مع ثمانين الفا من اهالى المدينة الى عاصمة الشام ومالبث حتى انهالت عليه الرغبات فى التعليم بالمدارس الاهلية • ولما يمض شهر على وصوله • وطلب منه علماء دمشق ان يلقى دروسا فى الوعظ والارشاد بالجامع الاموى فى شهر رمضان فاستجاب لطلبهم والقى دروسه « تحت قبة النصر » على طريقة الامالى • فكان يلقى حديثا من حفظه يجعله موضوع الدرس • ثم يفسره بما يوافق روح العصر واحداثه • ودعته الحكومة ـ بعد خروج الاتراك من دمشق ـ الى تدريس الاداب العربية بالمدرسة السلطانية ، وقد كانت المدرسة الثانوية الوحيدة آنئذ ، فتخرج على يديه كثير ممن يحمل منارة الفكر فى الشام فى ايامنا هذه •

وتبدأ مرحلة اخرى فى حياة البشير الابراهيمى ، مرحلة خصبة من مراحل الجهاد فى الجزائر الشقيقة ، اثارت الطريق واشعلت روح الحماس ، ونبهت الاذهان وبثت روح القومية فى نفوس عرب الجزائر وازالت الصدأ الذى كاد يطمس عقولهم ، ويجعل وطنهم قطعة من فرنسا ، لا قطعة من ارض الامة العربية • فقد رجع البشير حوالى سنة ١٩٢٠ الى الجزائر وقابل ابن باديس •

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس ، اعلم علماء الشمال الافريقى وبانى النهضات العلمية والادبية والاجتماعية والسياسية للجزائر ، قد تقابل مع البشير الابراهيمى فى المدينة لاول مرة فى حياة كل منهما ، فبالرغم من انهما من ابناء وطن واحد فقد حالت ظروف الحياة دون تعارفهما ، فكل منهما يتعلم ثم يعلم فى بيت والده ، هذا فى « بجاية » وذاك فى «قسنطينة» ، وفى شرخ الشباب ارتحل ابن باديس الى تونس ليتم علومه فى جامع الزيتونة ، وارتحل البشير الى المدينة المنورة • ولكن الاقدار شاءت ان يتقابلا فى المدينة بعد ان زارها ابن باديس ، فكان لقاء اخوين تشابها فى التفكير ونهلا من منبع ثقافة واحدة ورسم كل منهما لنفسه خطة فى الجهاد هى نفس الخطة التى رسمها الاخر • ولذا كانا يلتقيان كل ليلة فى المسجد النبوى فى صلاة العشاء ثم يذهبان الى منزل البشير ويسمران منفردين الى آخر الليل ويذهبان مرة اخرى الى المسجد النبوى لاداء صلاةالصبح • وظلا كذلك طيلة الاشهر الثلاثة التى قضاها ابن باديس فى المدينة ، عاشت افكارهما مع الوطن السليب ، وسبح خيالهما فى الوسائل التى تاخذ بيده الى الامام ؛ ودبرا امورا ووضعا خططا ، فنشأت بذلك اللبنة الاولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التى تكونت سنة ١٩٣١ ، والتى كان لها فى المجال الوطنى شان واى شان •

وقد بدأ ابن باديس فى تنفيذ ما اتفق عليه فور وصوله الى الجزائر ، ففتح بعض المكاتب لتعليم العلم ، واحتكر مسجدا من مساجد قسنطينة يصلى فيه بالناس ، ويشرح لهم بعد الصلاة بعض آيات القرآن الكريم • وسرت انباؤه مسرى النور فى الظلم فانهال عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب من الجبال والسهول ، من المدن والقرى ، حتى ضاقت بهم المدينة ، وكاد ان يضيق بهم موردا ، لولا اناعانه على تنظيمهم وايوائهم واطعام المحتاجين منهم بعض كرام اهل الجزائر • ولقد كان من الطبيعى ان يضيق المستعمر بهذه الظاهرة ويرى فيها بادرة شر ضده ، ولكن الذى اسكته عنها هو مقام والد عبد الحميد بن باديس عند الحكومة ، فقد كان يتمتع بمقام محترم عندها •

رجع الشيخ البشير الى الجزائر ، ورأى الاثر الذى احدثته حركة ابن باديس العلمية ، وسمع خطبا وشعرا باللغة العربية الفصحى من شبان تخرجوا على يديه ، وقرا مقالات فى بعض الصحف لا تقل فى بلاغتها عن المقالات التى قراها فى الشرق العربى ، فاستبشر خيرا . وبدا هو من جانبه القيام بحركة مؤازرة لحركة ابن باديس ، فعقد الندوات العلمية للطلبة ، والقى المحاضرات على الجماهير الحاشدة فى المدن والقرى ، ونظم دروس الوعظ والارشاد ايام الجمع فى البلاد المختلفة ؛ وتجاوز ذلك الامر فتح مدرسة صغيرة لتعليم الشبان الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير . ولكنه كان يفعل ذلك وهو على حذر من بطش الحكومة الاستعمارية ، فلا سند له يلوى اليه كسند ابن باديس .

وظل الرجلان يعمل كل منهما فى مجاله ، ويتزاوران كل اسبوعين او كل شهر على الاكثر طيلة عشرة اعوام فى الفترة مابين سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٠ ، حتى آمنا بان الوقت قد اصبح مناسبا لاخراج جمعية العلماء الى حيز الوجود. ولم يشا الرجلان ان يعلنا عن تاسيس الجمعية قبل ان يجربا مالها من شعبية واستجابة لدى الجماهير ، فانتهزا فرصة احتفال حكومة الاستعمار بمرور قرن كامل على احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٩٣٠ ، وصمما على افساده . فقد كان مقررا لهذا الاحتفال ان يستمر ستة اشهر ، ورسم له برنامج حافل بالمهرجانات ، وحضره مندوبون من دول كثيرة ، ولكن جمعية العلماء استطاعت بدعاياتها السرية ان تعكر الجو على المستعمر فاضطرت حكومته ان تقصر امد الاحتفال الى شهرين .

ولما اطمانت الجمعية الى قوتها وشعبيتها اعلنت عن تاسيسها فى شهر مايو سنة ١٩٣١ بموجب قانون مختصر وضعه الشيخ البشير ، حرص فيه كل الحرص على ان يبعد مواده عن اية شبهة سياسية ، فافلح فى نيل موافقة حكومة الاستعمار على قيام الجمعية . واجتمع علماء الوطن وفقهاؤهم فى نادى الترقى بالجزائر اربعة ايام انتخبوا بعدها ابن باديس رئيسا للجمعية والبشير الابراهيمى وكيلا لها . ووضع الشيخ البشير لائحة للجمعية فى مائة وسبع واربعين مادة ، وناقشها المجلس فى ثمانى جلسات ، حضرها كثير من المحامين والصحفيين العرب المثقفين بالفرنسية ، فعرفوا لاول مرة ان اللغة العربية هى اوسع اللغات واصلحها لصياغة القوانين ومرافعات المحامين .

وكان منهج جمعية العلماء قائما على محاربة الاستعمار الفرنسى من جانب وقد سمته الاستعمار المادى ، وعلى محاربة البدع التى يقول بها بعض مشايخ الطرق وقد سمته الاستعمار الروحى . وكان حربها وجهادها ضد الاستعمار الاخير اشد وانكى . فقد آمنت انها بالقضاء على البدع والخرافات ، ستنبه الاذهان وتزيل غشاوة العيون ، وتمحى ضلالات التفكير المنحرف عن جادة الحق والصواب ، اضف الى ذلك ان القضاء عليه اهون وايسر . ولذا فقد شنت عليه حربا منظمة لا هوادة فيها ؛ بالخطب والمحاضرات والتعليم العربى للصغار .

ويطول بنا المقام اذا نحن حاولنا أن نعدد مآثر جمعية العلماء والطرق التى سلكتها فى سبيل نهضة الجزائر الاجتماعية والسياسية ، ولكن ينبغى ان نقول ان فرنسا قد ضاقت ذرعا باعمال الشيخ البشير فانتهزت فرصة نشوب الحرب العالمية الثانية ونفته الى صحراء وهران . وبعد اسبوع من هذا النفى تلقى نبا مؤلما هو وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ثم تلقى نبا انتخابه هو رئيسا للجمعية فظل يصرف اعمال الجمعية بالمراسلات .

وبقى البشير فى المنفى ثلاث سنوات ، اطلق سراحه بعدها سنة ١٩٤٣ ، فعاد الى نشاطه اصلب عودا وامضى عزيمة واحد نشاطا . فقد انشا فى سنة واحدة ثلاثا وسبعين مدرسة على طراز عربى واحد وباموال الامة العربية فى الجزائر ، وهى التى آمنت بدعوته هو وزميله ابن باديس ، فبذلت المال فى سخاء لتشييد مايربو على اربعمائة مدرسة . ولقد كان من الطبيعى ان تضيق حكومة الاستعمار بهذا النشاط الوطنى ، فدبرت للجزائر ثورة مفتعلة قتل فيها مايقرب من ستين الف عربى ، وسيق الى المعتقلات مايقرب من سبعين الفا معظمهم من اتباع جمعية العلماء . والقى بالبشير الابراهيمى فى السجن العسكرى تمهيدا لمحاكمته ، فلبث فى السجن سنة الا قليلا ثم افرج عنه بصدور عفو عام على مدبرى الثورة !

وعاد الشيخ البشير الى نشاطه ، فاعاد صدور جريدة البصائر التى كان قد عطلها فى اوائل الحرب الاخيرة بالاتفاق مع ابن باديس ، لانهما رايا انهما لا يستطيعان ان يصدرا بحرية فى ظل القوانين الحربية ورباء بقلميهما ان يكتبا فى ظل القيد . وتولى رئاسة تحريرها .

وقد امتد نشاط البشير الابراهيمى وجمعية العلماء الى انشاء المدارس الثانوية ، فانشئت مدرسة ثانوية فى مدينة قسنطينة سميت باسم ابن باديس .

هذا ، ولم يقتصر نشاطه على انشاء المدارس وتدبيج المقالات والقاء المحاضرات بل تجاوزه الى فض المنازعات التى تقع بين القبائل والافراد .

وقد الف الشيخ البشير كتبا كثيرة ؛ كلها مازال مخطوطا ماعدا كتابا واحدا مطبوعا هو « عيون البصائر » ، وهو كتاب ضخم يضم ماكتبه من مقالات فى جريدة البصائر ، فى سلسلتها الثانية . اما كتبه الاخرى فهى :

١ ـ بقايا فصح العربية فى اللهجة العامية بالجزائر .

٢ ـ النقايات والنفايات فى لغة العرب .

٣ ـ اسرار الضمائر العربية .

٤ ـ التسمية بالمصدر

٥ ـ الصفات التى جاءت على وزن فعل .

٦ ـ نظام العربية فى موازين كلماتها .

٧ ـ الاطراد والشذوذ فى العربية .

٨ ـ ما اخلت به كتب الامثال من الامثال السائرة .

٩ ـ حكمة مشروعية الزكاة فى الاسلام .

١٠ ـ شعب الايمان .

١١ ـ بعض المحاضرات والابحاث والفتاوى التى جمعها عنه بعض تلاميذه .

١٢ ـ ملحمة رجزية . نظمها فى السنين التى كان فيها مبعدا فى صحراء وهران ، وتبلغ ستة وثلاثين الف بيت من الرجز السلس اللزومى فى كل بيت منه . وقد دارت موضوعاتها حول تاريخ الاسلام والمجتمع الجزائرى . ولقد كان المؤلف يعتز بها كثيرا .

ولقد ترك الشيخ البشير كتبه هذه فى الجزائر ؛ ورحل الى الشرق سنة ١٩٥٢ ، بتكليف من جمعية العلماء ، وذلك للسعى لدى الحكومات العربية لتقبل بعثات من ابناء الجزائر ، ومخاطبتها فى اعانة الجمعية بالمال .

ولما قامت ثورة الجزائر سنة ١٩٥٤ ؛ استقر الشيخ فى مصر ، واختير عضوا فى مجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١ ممثلا للجزائر ، وكان واحدا من احد عشر عضوا عاملا يمثلون البلاد العربية . وقد استقبلهم الدكتور ابراهيم مدكور الامين العام للمجمع ، والقى هو « كلمة الاعضاء الجدد » بالنيابة عن زملائه .

وقد رجع الشيخ البشير الى الجزائر بعد استقلالها ، وتوفى هناك عن ٧٦ عاما .

رحمه الله بقدر ما اسدى الى امته من خدمات ، فقد احيا اللسان العربى ؛ ونبه الاذهان ، وايقظ النفوس ، ودعا للتمسك بالدين الحنيف ، واثار روح القومية العربية . فمهد بذلك لثورة المليون شهيد ، ثم عضدها بعد اندلاعها ، وعاش حتى راى ثمرتها ، فمات راضيا مطمئنا .

سعيد زايد